مفهومُ البلاغة _ قراءة في الموروث

أ. د. فلاح حسن كاطع

الجامعة المستنصريّة / كليّة التّربية/ قسم اللّغة العربيّة

The concept of rhetoric _ reading in the inheritance

Prof. Dr. Falah Hassan Katea

ملخص البحث

من يتحرّى البلاغة العربيّة يجدها ذات تحوّلات منحتها صفة العموم والمنعة والقوّة، ولعلّ أبرز إمارات قوّتها اتّصالها بالعلوم الأخرى، حتّى غدت في معناها ومفهومها دراسة التّعبير اللّغويّ وكيفيّة انتاج المعنى عبر دراسة أدوات التّعبير.

ويجد الباحث عن مفهوم البلاغة تعدّد المفهوم، ولنقل تعدّد المفهومات أو الفهم، وإخال علّة ذلك أنّ كلًّا يصنع مفهومًا ينتفع به، فتعدّدت المفهومات بتعدّد الفاهمين، فضلًا عن تعدّد أنساغ المفهوم، وهذه عقبة كأداء في طريق مَن يروم الانتهاء إلى مفهوم مستقرّ؛ لذا وجدت البحث في مشكلة مفهوم البلاغة ذا جدوًى؛ لصلتها بالفكرة المجرّدة حول البلاغة؛ ولأنّ المفهوم من شأنه أن يعمّر عمرًا طويلًا على ما هو عليه، متضمّنًا ما به حاجة إلى تشذيب أو غير ذلك من أدواء المفهومات، فضلًا عن أنّ المفهوم ركيزة فكريّة معرفيّة مؤسِّسة ينبع منها المصطلح الّذي يحمل صفات المفهوم الوراثيّة مع صفات(المعنى اللّغويّ). ووصلت بالبحثّ الى أنّ البحث البلاغيّ بدأ في آراء وملحوظات نظريّة انطباعيّة ذوقيّة مع نزر من التّعليل، ثمّ آل الأمر إلى العلميّة والتّعليل، في مرحلة البحث في إعجاز القرآن صعودًا إلى اكتشاف جمال النّظم. وصارت البلاغة علمًا بعد أن كانت معرفة عامّة، وتجلّت علميتها في نشدان الصّحّة إلى جانب العناية بالجمال. وظهرت المعياريّة لتمثّل المثال الشّعريّ أو القرآنيّ. وأنّ الصّلة بين مفهوم البلاغة ومعنى اللّفظ الأصل، ذات منشأ بيئيّ حسيّ مكانيّ، ثمّ اجتاز المكانيّة، وتحوّل في الفكر العربيّ إلى مطلق الغاية. وكانت المرحلة المفهوميّة والتّعريفيّة الأولى، فاعمة بالأنا والتّجزيئيّة؛ لأنّ حقبة صياغة التّعريف حقبة الثّقافة الشّفاهيّة والطّور الشّفاهيّ ذي الصّبغة الانطباعيّة غير المهذّبة بالنّظر والتّأمّل والاستقراء، الّتي هي حقبة التّنافس الشّفاهيّ المنبثق عن غلبة الحواس والرّغائب.

الكلمات المفتاحية: مفهوم، بلاغة، قراءة

Abstract

Whoever investigates Arabic rhetoric finds it with transformations that endowed it with the quality of generality, invincibility and strength. Perhaps the most prominent signs of its strength are its connection with other sciences. It became in its meaning and concept the study of linguistic expression and how to produce meaning through studying the tools of expression.

The researcher of the concept of rhetoric finds the multiplicity of the concept, i.e., the multiplicity of concepts or understanding. The reason behind this is that everyone makes a concept that benefits from it, so the concepts are multiplied by the multiplicity of understanding as well as the multiplicity of the concept's textures. This is a formidable obstacle in the way of those who wish to reach a stable concept; Therefore, I found research on the problem of the concept of rhetoric useful due to its connection to the abstract notion of rhetoric and because the concept would have a long life as it is, including what needs to be trimmed or other cures of concepts. In addition, the concept is a foundational intellectual and cognitive pillar from which stems the term that carries the concept's genetic characteristics with the attributes of (the linguistic meaning). I reached into the conclusion that the rhetorical research began in the views and observations of the theory of impressionistic taste with a few reasons. Then, the matter turned to scientific and justification in the stage of research in the miracle of the Qur'an up to the discovery of the beauty of systems. Rhetoric became a science after it was a general knowledge; its science was manifested in the pursuit of health as well as beauty care. The normative appeared to represent the poetic or Quranic example. And that the relationship between the concept of rhetoric and the meaning of the word origin, has an environmental, sensory, spatial origin. Then it crossed specialism and transformed in Arab thought to an absolute goal. The first conceptual and defining stage was full of ego and fragmentation because the era of formulating the definition is the era of oral culture and the oral phase of an impressionistic tint that is impolite in consideration, contemplation and induction, which is the era of verbal competition that emanates from the predominance of senses and desires.

key words: Concept, Rhetoric, Reading

١ – المقدّمة

الكتابة في هذا الموضوع يحدوها ما شهدته الدّراسات البلاغيّة والنّقديّة واللّغويّة من تجديد، إذ بات مهمًّا أن تشهد البلاغة العربيّة ما شهدته مجالات البحث الأخرى.

ولابدّ من إدراك حقيقة هي أنّ التّجديد يقتضي الاحتراز من قيد تقديس الماضي من دون إهماله أو التّخلّي عنه أو شتمه؛ لأنّ التّقديس المقصود ليس ذنب الماضي والماضين، بل هو ما أراده الدّارسون المحدثون، فهو نهجهم الّذي ارتضوه وأرادوه.

٢– من يتحرّى البلاغة العربيّة يجدها ذات تحوّلات منحتها صفة العموم والإطلاق والمنعة والقوّة، ولعلّ أبرز أمارات قوّتها اتّصالها بالعلوم الأخرى، حتّى غدت في معناها ومفهومها دراسة التّعبير اللّغويّ وكيفيّة إنتاج المعنى عبر دراسة أدوات التّعبير، ولنقل: الاستعمال العلميّ والفنّيّ لأدوات التّعبير وإنتاج المعاني، وفُهمت أيضًا بأنّها إبداع النّص وتحليله.

ولقد حملها هذا العموم حتّى صارت علمًا بعد أن كانت معرفة عامّة، وحازت العلميّة من تعالقها بأداة العلم (المنطق) في أظهر تجليّات هذا الاتّصال الّذي هو نشدان الصّحّة إلى جانب العناية بالجمال، وقد لزمتها هاته الصّفة (الإحاطة والسّعة) بدلالة تعدّد علومها، فالبلاغة فنّ وعلم وتتّضح العلميّة في الفنّ والفنّيّة في العلم، من ضبط الفنّ بمنهج وقواعد واتّساق ونظام، وإخال هذا آتيًا من أنّ البلاغة تُعنى بالنّشاط الأبرز لدى الانسان الّذي هو الكلام، ولا ريب في أنّ الكلام فيه ذائقة وجمال واتّساق ومعجمية، لهذا باتت البلاغة وسطيّة بين الطّبع و الصّنعة فهي تهذيب الطّبع وجمال الصّنعة.

٣– يقود النّظر في سيرورة البلاغة العربيّة إلى أنّها كانت آراء وملحوظات نظريّة انطباعيّة ذوقيّة مشوبة بنزر من التّعليل، ثمّ آل الأمر بالتّدريج إلى العلميّة والتّعليل والنّظر الفاحص واكتشاف الأنساق والنّظم فيما هو باهر ومبتكر، وحدث ذلك في مرحلة البحث في إعجاز القرآن صعودًا إلى اكتشاف جمال النّظم، فاجتمع الجمال والنّظم، والجمال شقّ الفنّ، والنّظم شقّ العلّم والمنطق، غير أنّه بين الفينة والأخرى والمرحلة وتاليتها يغلب طرفٌ صاحبَهُ بحسب العوامل المساعدة

وتقلّبات الأحوال.

وما سيادة الجانب العلميّ إلّا وليدة المحاجّة والتّعليل والعقلنة والبرهان في طور اتّخاذ البلاغة أداة إقناع وردع ومنافحة، يزيد على هذا أنّ الرّافد الثّقافيّ هو في نفسه الوافد الّذي به حاجة إلى الإقناع، فضلًا عن وقوع البحث البلاغيّ في مستهلّ نشأته في دائرة العقائد والإعجاز، وربّما من المفيد الإشارة إلى أنّ المعياريّة ظهرت من أجل تمثّل المثال واقتفاء أثر الفنّ في شكله الشّعريّ أو القرآنيّ الّذي ظهرت العناية به تحت خيمة الموازنة والمقارنة بوصفهما إجراءً علميًّا منهجيًّا له صفة الأداة لإثبات الإعجاز.

٤- لعلّ من الحسنى الابتداء بمشكلة مفهوم البلاغة[1]؛ لأنّها بؤرة تصدر عنها مشكلات أخرى؛ لصلتها بالفكرة المجرّدة حول البلاغة؛ ولأنّ المفهوم من شأنه أن يعمّر عمرًا طويلًا على ما هو عليه، متضمّنًا ما به حاجة إلى تشذيب أو إحاطة أو غير ذلك من أدواء تعتري المفهومات ولاسيّما التّليد منها، فضلًا عن أنّ المفهوم ركيزة فكريّة معرفيّة مؤسِّسة ينبع منها المصطلح الّذي يحمل صفات المفهوم الوراثيّة إلى جانب صفات العرق المدسوس(المعنى اللّغويّ).

ولكي تكون البداية ناجحة لابدّ من الاعتراف بشهادة الحقّ والصّدق أنّ البحث البلاغيّ نشأ تحت مظلّة الكتاب العزيز، وتؤيّد نظرة يسيرة في كتب معاني القرآن ومجازه هذه الحقيقة ولاسيّما هي مصادر رئيسة مغدقة زخّارة إلى اليوم في عطائها

٥- نشأ البحث البلاغيّ العربيّ _ ولا أقول البلاغة؛ لأنّ البلاغة شيء يختلف عن البحث و لأن البلاغة جزء من الكفاية اللّغويّة_ من حاجة عامّة مشتركة كليّة بلحاظ أنّ البلاغة في هيأتها العلميّة المنظّمة نتاج الحال الّتي سادت بعد مجيء الإسلام إذ أدّت بوصفها علمًا مهمّة الكشف عن إعجاز القرآن الكريم، ابتداءً من أبّان بن تغلب الكوفيّ(ت١٤١هـ) الّذي ألّف كتابًا في معاني القرآن لم يصل إلينا، وأبي جعفر الرّؤاسيّ(ت١٧٠هـ) الّذي ألّف أيضًا في معاني القرآن كتابًا لم يصل إلينا، وبعدهما ألّف الفرّاء(ت٢٠٧هـ) كتابه معاني القرآن، ثمّ أبو عبيدة(ت٢١٠هـ) الّذي ألّف مجاز القرآن، ثمّ كتب الأخفش الأوسط(ت٢١٥هـ) معاني القرآن، تلاه ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في تأليف تأويل مشكل القرآن، تلاهم الواسطيّ(ت٣٠٦هـ) الّذي ألّف كتابه

الضّائع إعجاز القرآن، ثمّ يأتي معاني القرآن للزّجاج(ت٣١١هـ)، ثمّ النّكت في إعجاز القرآن للرّمانيّ(ت٣٨٤هـ)، وبعده بيان إعجاز القرآن للخطّابيّ(٣٨٨هـ)، وإعجاز القرآن للباقلّانيّ(ت٤٠٣هـ)، والرّسالة الشّافية لعبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ) وكتابه دلائل الإعجاز، وما زيدت إليها من تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغداديّ (ت٤٨٥هـ)، وبديع القرآن لابن أبي الإصبع المصريّ(ت٦٥٤هـ)، والطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلويّ (ت٧٤٩هـ). فهذا الحشد من الرّسائل والكتب وغيرها كثير برهان ساطع على أنّ البلاغة العربيّة في شقّيها النّظريّ والإجرائيّ ذات منشأ قرآنيّ.

٦- يبقى السّؤال: ما مفهوم البلاغة؟

كان مفهوم البلاغة متداولًا في الوسط الثّقافيّ منذ أواخر القرن الثّاني[٢] الهجريّ ولقد أسهمت ترجمة آثار أرسطو في زيادة الاهتمام بالبلاغة، ولمّا كان أثر أرسطو المترجم غير يسير[٣] الفهم لدى البلاغيّين والنّقدة فقد مالوا إلى خطابهم وبيانهم وشعرهم ونثرهم فصنّفوا البلغاء والبلاغة معتمدين على استقراء تراثهم ونصوصهم الّتي في طليعتها القرآن الكريم.

يجد الباحث عن مفهوم البلاغة تعدّد المفهوم، ولنقل تعدّد المفهومات أو الفهم، وإخال علّة ذلك أنّ كلًّا يصنع مفهومًا ينتفع به، فتعدّدت المفهومات بتعدّد الفاهمين، فضلًا عن تعدّد انساغ المفهوم، وهذه عقبة كأداء في طريق مَن يروم الانتهاء إلى مفهوم مستقرّ. قال ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): (اعلم أنَّ هذا بابٌ متعذرٌ على الوالجِ، ومسلكٌ متوعر على الناهجِ، ولمْ يَزَلْ العلماءُ من قديم الوقت وحديثِهِ يكثرونَ القولَ فيه والبحثَ عنه، ولمْ أجدْ من ذلك ما يعوَّلُ عليه إلاّ القليل)[٤].

٧- البلاغة في اللّغة:

أريد أن ابدأ بعد هذا المهاد بداية مسنونة هي معنى البلاغة اللّغويّ وتعريفاتها الّتي كثرت وكان جلّها نعوتًا وليس تعريفات جامعة مانعة، كما قال د. حمّادي صمّود: (عدم التقيّد بضوابط التعريف وانحصار مفهومه عندهم في استعراض الخصائص الّتي تحقّق البَلاغة، سيكون السّمة الغالبة على تعريف البلاغة في كلّ مراحلها، ولن نجد صدى لأي محاولة تروم الوقوف على الحدّ الجامع المانع)[٥].

البلاغة في اللّغة الوصول والانتهاء[٦]، جاء في معجم مقاييس اللّغة لابن فارس: (بلغ،الباء واللام والغين أصلٌ واحد وهو الوُصول إلى الشيء، تقول: بَلَغْتُ المكانَ إذا وصَلْتَ إليه، وقد تُسَمَّى المُشَارَفَةُ بُلوغًا بحقِّ المقارَبة...وكذلك البَلاغَة التي يُمْدَحُ بها الفَصِيحُ اللِّسان، لأنّه يبلُغُ بها ما يريده)[٧].

القراءة

الّذي يستوقفني قول ابن فارس: (البَلاغَة التي يُمْدَحُ بها الفَصِيحُ اللِّسان، لأنّه يبلُغُ بها ما يريده)، الّذي تضمّن الإشارة إلى الفصاحة والبلاغة، ولمّا كانت الفصاحة الظّهور والوضوح، فالمتبادر أنّ المراد وضوحُ الدّلالات وظهور المعاني المؤدّاةِ باللّفظ، أمّا البلاغة فهي صفة زائدة على الفصاحة، ولاحقة إيّاها بحسب ترتيب الصّفتين، تحصل بحصولها وتنتفي بانتفائها ولا تستقلّ استقلالَها؛ لذا الرّاجح أن المراد بها التّأثير وليس فهم المعنى وإفهامه حسب.

ولعلّ من المفيد محاولة إيجاد الصّلة بين اللّفظ ومعناه الأصل، فالبلوغ الوصول، والصّلة بينهما مفيدة لإدراك المَنشأ المعرّفيّ بينهما، الّذي هو منشأ بيئيّ؛ حسيّ مكانيّ في الأصل، آل إلى بيئيّ مجتازٍ المكانيّة؛ لأنّ ذلك الوصول في البيئة العربيّة غايةٌ يعسر إدراكها وبها حاجة إلى بذل جهدٍ وتحمّل مشقّةٍ، فصار الوصول غايةً، ولا يخفى أنّ الوصول المقصود إنّما هو الوصول الحسيّ المكانيّ ابتداءً كما ذَكرتُ؛ لقول ابن فارس: (تقول: بَلَغْتُ المكانَ)، الّذي تحوّل في الفكر العربيّ إلى مطلق الغاية.

فالتّعريف ذو دلالة مكانيّة المنطلق حسيّته؛ لأنّ ما نجده في المعجم وكلّ ما يدور حول هذا الجذر ذو دلالة ماديّة بشهادة المشتقّات المتآخية معه بهذا الجذر أو المحور(البيئة)، كبلوغ الصّبيّ الّذي هو بلوغ جسديّ وكذا البُلغة والتّبلّغ[٨]، الّذي هو ذو دلالة بيئيّة انتهى إليها، وتطلّ على الواقع العربيّ.

ويدلّ معنى الوصول و الانتهاء من جهة أخرى دلالة ضمنيّة غير غائرة ولا متوغّلة في البعاد، على التّخطيط بوصفه الإجراء الأوّل الابتدائيّ قبل الشّروع صوب الغاية، فضلًا عن قطع مسافة معيّنة، ومقتضى هذا (مقتضى المسافة) وجود وسيلة ذاتيّة أو خارجيّة، ويقتضي اتّخاذ نوع من الحركة أو كيفيّة معيّنة في استعمال الوسيلة.

٨- هناك قضايا رئيسة عامّة ناتجة عن المعنى الأوّل الحقيقيّ اللّغويّ، وعند تركيز هذه القضايا واستيحاء دلالاتها باتّجاه النّاتج الكلاميّ أو نشاط الإنسان اللّغويّ، تتّضح ملامح اللّغة العامّة ومعالمها بله اللّغة الأدبيّة، إذ تمثّل المسافةُ الماديّة هناك المسافةَ بين العناصر الرّكنيّة في الفعاليّة الكلامية أو الإبلاغيّة الّتي تتعدّد بحسب الملحوظ أو السّياق الّذي يكتنف الكلام، فهذه العناصر الأركان قد تكون المؤثّر والمتلقّي وقد تكون اللّفظة ومعناها وقد تكون المبدع نفسه وتجربته الثّقافيّة، وقد تكون مجتمعة. فأمّا الصّنف الأوّل(المؤثّر والمتلقّي) فأمره واضح إذ ينطلق المؤثّر باتّجاه المتلقّي عبر وسيلة اللّغة بما تتضمّنه من إشاريّة ورمزيّة عامّة قصد الإبلاغ أو الإخبار أو التّأثير، وهنا تبرز قضيّة مهمّة هي تجلّي المؤثّر في نشاطه أو فعله، أي: ارتباط المؤثّر ووسيلته (لغته أو إبداعه)، بمعنى أن يغدو فعله أو أدبه أو نشاطه كأنّه ذاته؛ لذا قيل: (الأسلوب من الرجل نفسه)[٩]، وكأنّ الكلمة هي الذّات النّاطقة نفسها، أي: تصبح الرّسالةُ المرسلَ.

أمّا الصّنف الثّاني(اللّفظة ومعناها) فدالّ على تفاوت أقدار المعاني وتفاوت مقادير الدّقة والإصابة بوساطة اللّغة، لأنّ قولنا: البلاغة الوصول - في هذا السّياق أو الصّنف - يشير إلى قوّة الألفاظ وتفاوت سرعاتها، كما تختلف الوسائل الأخرى في جدواها وقدراتها وسرعاتها، وهنا يتشظّى الدّال إلى شقّ ماديّ بوصفه صوتًا ذا دلالة، وشقّ معنويّ إذا أريد به التّأثير الذّوقيّ أو النّفسيّ.

أمّا الصّنف الثّالث (المؤثّر وثقافته وتجربته) فيكرّس الأحاديّة؛ لأنّه يبدأ بالمؤثّر وينتهي به وإليه، وبذا تكون البلاغة على وفق هذا الفهم المعجميّ الجذر و المنتمى، أنْ يصل المتكلّم إلى مراده من الإفصاح والتّعبير، وهنا تذوي أو تتضاءل أو تضعف ثنائيّة أنا الآخر أو هو الآخر، ونجد هذا المدلولَ الماديّ حتّى في مرحلة الجاحظ (ت٢٥٥هـ) الّذي هو رأس مرحلةٍ وطورٍ من أطوار البحث البلاغيّ عقيب سيادة الطّور اللّغويّ المحكَم، حيث يقول: (وقال بعضهم- وهو مِن أحسَن ما اجتَبيْناه ودَوَّنّاه - لا يكون الكلامُ يستحقّ اسمَ البلاغة حتَّى يسابق معناه لفظَه ولفظُهُ معناه)[١٠].

فهنا مسابقة توحي بالطّريق والسّير والمسافة، وأيضًا فيما نُقل من أوصاف منها:

قول الخليل (ت١٧٥هـ) بحسب ابن رشيق: (البلاغة ما قَرُبَ طَرَفاه وبعد منتهاه)[١١]، فهنا طرفان، أي: مسافة بين نقطتين، وكذلك عبارة: (بعُد منتهاه)، نجدها ذات بعد ومنتهى (غاية)، أو مثابة مقصودة، وكذا قول ابن المعتزّ(٢٩٧هـ): (البلاغة بلوغ المعنى ولمّا يَطُلْ سَفَرُ الكلام)[١٢]، يتضمّن سفرًا و مسافة مقطوعة، و قولهم: (دنو المأخذ)[١٣]، فيه (دنو) يعني السّير أو الحركة باتّجاه.

نلحظ البعد الماديّ ذا المنابت البيئيّة الّذي يذكّرنا بمحور الرّحلة والارتحال في الشّعر بوصف الشّعر حافظًا أمينًا لثقافة العرب ومظهرًا صادقًا لها. وقال المبرّد: (حقّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلَها، وأن يقرَّب بها البعيد، ويحذف منها الفضول)[١٤]، هنا أيضًا بعد وقرب.

فهذا الفهم مصبوغ بلون البيئة العربيّة الّتي لوّنت الفكر العربيّ عامّة. ويلوح لي أنّ بلسم أدواء المفهوم يقوم على الخروج من حيّز الجملة إلى الأسلوب الّذي قد يكون شخصيًّا وقد يكون أسلوب عصر أو مكان أو أمّة ويرتبط بالسّياق والموقف والوجدان والرّوافد الثّقافيّة والأصول المعرفيّة، بحيث ينظر إلى العمل الأدبيّ واحدًا متكاملًا وجسدًا واحدًا، ولّما كانت ثمار النّص مختلفة فلا يمكن أن تخضع النّصوص جميعها إلى ميزان واحد.

٩- الجاحظ و المتكلّمون و البلاغة

يقود النّظر في مسيرة البحث البلاغيّ إلى ظهور تيّار بين التّيارات الأخرى هو تيّار المتكلّمين، الّذين عنوا بالمفهوم البلاغيّ، ولم يقتصروا في ذا على البلاغة بل شملت عنايتهم فنونًا أخرى؛ لذلك ظهرت المعايير والأقيسة والنّزعة العقليّة المنطقيّة في فنون العربيّة ومنها البلاغة، يزيد على هذا، إذِن غياب العنصر الرّائد والمؤثّر في الميدان للمتكلّمين بأن يقودوا البحث ويطبعوه بطابعهم، فضلًا عن غياب المفهوم نفسه؛ لأنّ غيابه مسوّغ ناجع للتّركيز عليه، ومن أقدم ما وصلنا عن طريق الجاحظ وما هو بملوم_ لا يعدو النّعوت الانطباعيّة الهائمة، فأبعد ما أورد: (قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرّفة الفَصْل من الوصل، وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الاقسام واختيار الكَلام، وقيل للروميّ: ما البلاغة ؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغَزارة

يَوْمَ الإِطالة، وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضُوح الدّلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة)[١٥].

هذه كلمات مقتضبة عامّة لا تفصح عن أفق معرفيّ متكامل ولا عن مفهوم ناضج قائم مَشِيد، ومَصُوغ صياغة خاتمة، وما نعتنا هذا، منقصة نراها في هذه الآراء؛ لأنّها تخضع لما يخضع له كلّ أمر إبّان النّشأة من نواميس التّطوّر، فهي أقوال من جنى البلاغة وليست من جنى علم البلاغة، قال ابن وهب (ق٤هـ): (وقد ذكر الناسُ البلاغةَ ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدّها، وذكر الجاحظ كثيرا ممّا وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدّها)[١٦]

وقال ابن سنان الخفاجيّ (ت ٤٦٦هـ) مثل قول ابن وهب: (وقد حدّ الناس البلاغة بحدود إذا حقّقت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة)[١٧].

تدلّ تلك النّصوص الّتي نقلها الجاحظ فيما دلّت عليه إلى غياب مفهوم عربيّ؛ لأنّها لغير العرب، ولا ريب في أنّها ذات منابت غير عربيّة، وربما توخّى أبو عثمان بإيرادها أن يؤسّس لمفهوم عربيّ إزاءها، أو أراد أن يقول قولًا عربيًّا في البلاغة، أو لعلّه أراد أن يأتي بمهاد نظريّ ثقافيّ مستوعب ومحيط يشيّد عليه رأيه وقالته، وقد يكون مراده أنّ القول العربيّ مجمع تلك الأقاويل ولا يشذّ عنها، أو هو خلاصتها وزبدة مخضها. ويهمني أن أشير في هذا المقام إلى أنّ الجاحظ سلك مسلكًا ثقافيًّا عامًّا متقوّمًا بالاستقراء ولا شكّ في أنّ صنيعه هذا مزيّة علميّة رائدة.

وربّما صيغت الأقاويل صياغات مختلفة لمعنًى واحد، لأنّها تضمّنت أصلًا فلسفيًّا منطقيًّا يتّضح بألفاظ (المعرّفة، وتصحيح، ووضوح وانتهاز) أحسبه مجلوبًا بالملكة المنطقيّة المتبادرة الّتي لا يخدشها أن تنعت بالأوّليَّة، كما تضمّنت أصلًا ذوقيًّا أسلوبيًّا تجلوه ألفاظ (اختيار، وحسن)، وهي بعدُ آراء مقتضبة لا يبين منها طرائق التّوسّل لتحقيق قولٍ بلاغيّ أو انتهاء إلى رتبة البلاغة فيما يقال، يزيد على ذلك أن مبتدأها المنشئ مثلما هو منتهاها، وغابت الإشارة إلى المتلقّي، وفي ذا مسوّغ إلى الزّعم أنّها آراء في بلاغة الإنشاء والمنشئ حسب، وإنّي لأحسب البلاغة الكليّة فيما رست إليه

وانتهت عنده أو كما يراد لها، إنّما هي بلاغة الرّكنين المنشئ والمتلقّي، فكما أنّ للمتكلّم بلاغته وشرائط بلاغيّة، فكذا حال المتلقّي، الّذي له ما للمنشئ وعليه ما عليه، والرّأي عندي ثمّة بلاغتان ركنيّتان: بلاغة الإنشاء وبلاغة التّلقّي، بهما قوام البلاغة العامّة الكليّة، وهذا ضابط صياغة المفهوم، حيث لا مندوحة عن تضمّنه الإشارة إلى ذينك الرّكنين، ولا يقولنّ قائل: هذا متوافر في تعريف البلاغة الموروث: (البَلَاغَةُ فِي الكلامِ مُطَابَقَتُهُ لِمُقْتَضَى الحَالِ مَعَ فصَاحَتِهِ)[١٨]. ويستدلّ بالحال على المتلقّي؛ لأنّه لا دليل يقطع بأنّ المراد بالحال ههنا حال المتلقّي، فلعلّ المراد بها الحال الخاصّة بالمتكلّم أو حال القول العامّة، فإنْ كانت الحال المقصودة حال المتكلّم فلا ريب حينئذ بغياب الإشارة إلى المتلقّي وحاله، وإن كان المراد بها حال القول بوصفه حدثًا فإنّ حظّ المتكلّم هو الأعظم، وعلى التّقديرين وما وراءهما ممّا يُحتمل، ليس للمتلقي إلّا الغياب أو القليل، يزيد على هذا وذاك أنّ تلك الأقاويل ذات قربى من الانطباعيّة الّتي أراها في صميم الإطار الأوّل الّذي هو إطار المعجم والمفردة الّتي هي المرحلة الأولى والتّأسيسيّة لصياغة المفهومات والتّعريفات، والّتي هي مرحلة فاعمة بالأنا والتّجزيئيّة، وتعليل ذلك أنّ حقبة صياغة التّعريف حقبة الثّقافة الشّفاهيّة والطّور الشّفاهيّ ذي الصّبغة الانطباعيّة غير المهذّبة بالنّظر والتّأمّل والاستقراء، الّتي هي حقبة التّنافس الشّفاهيّ المنبثق عن غلبة الحواس والرّغائب، ويلوح لي أنّ الجاحظ بإيراده تلك الأقوال إنّما قصد نهجًا جديدًا يهجر به ذلك الطّور الشّفاهيّ الإفراديّ التّجزيئيّ، والشّروع بفهم كلّيّ مرتكز إلى الجمع والاستقراء والتّأمّل، وأمارة تلك الغاية الجاحظيّة دعوة الجاحظ لتدوين الثّقافة العربيّة[١٩]، وأنا في هذا المقام أدعو إلى البحث عن أصول بلاغة التّلقّي بوصفها أحد جناحي البلاغة وهي أمر خليق بالإنصاف من لدن الباحثين ولاسيّما أولي الهمّة والتّجديد.

ولقد خطا الجاحظ خطوته التّجديديّة باتّخاذ المنهج المعتزليّ الفلسفيّ المنطقيّ جادّة بحث، وعلامة هذا نقله صحيفة بشر بن المعتمر المعتزليّ (ت٢١٠هـ) [٢٠] الّتي تعدّ من أقدم النّصوص العربيّة في النّظر البلاغيّ، فضلًا عمّا صرّح به من مزيّة المعتزلة بقوله: (كبارَ المتكلمين ورؤساءَ

النظّارين كانوا فوقَ أكثرِ الخُطَباء وأبلَغَ من كثيرٍ من البلغاء...ولذلك قالوا العَرَض والجوهر... وذكروا الهذيّة الهُويّة)[٢١].

وخليق بالذّكر أن أبا عثمان الجاحظ جاء بصحيفة هنديّة جلّ الّذي فيها نعوت البليغ وليس مفهوم البلاغة[٢٢]، وهكذا يدور الجاحظ في هذه الدّائرة - بحسب الأقاويل الّتي نقلها - لبيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة وأنّ البيت قد يكون بليغًا ولا يكون فصيحًا وقد تجتمع فيه الخلّتان كما في قول الشّاعر[٢٣]:

تَمُرُّ الصَّبا صَفحًا بِساكِنَةِ الغَضا
وَيَصدَعُ قَلبي أَن يَهُبَّ هُبوبُـها
قَريبَةُ عَهدٍ بِالحَبيبِ وَإِنَّما
هَوى كُلِّ نَفسٍ حَيثُ حلَّ حَبيبُها

قال أبو هلال العسكريّ(ت٣٩٥هـ): البيت الأوّل فصيح وبليغ والآخر بليغ حسب[٢٤]، والّذي أراه أنّ الثّاني يفوق الأوّل. وممّا يدلّ على غلبة هذا المنهج أنّ أبا هلال العسكريّ بعد قرن ونصف بعد الجاحظ قال بأنّه سار في كتابه الصّناعتين على منهج الكتّاب والأدباء بيد أنّه أخذ أيضًا بمقالات المتكلّمين[٢٥]، فيما أورده من أقوال منها: (البلاغة دُنُوُّ المأْخَذ وقَرع الحجّة)[٢٦]، و(قال بعض الهند جُمَّاع البلاغة: البَصَرُ بالحجَّةِ)[٢٧]، و(قال ابنُ المقفَّع: البلاغةُ كَشْفُ ما غَمُضَ من الحقّ، وتصويرُ الحقّ في صورةِ الباطلِ)[٢٨]، وشرح هذا بقوله: (والذي قالَه أمرٌ صحيح... وذلك أَنَّ الأمرَ الظاهرَ الصحيحَ الثابتَ المكشوفَ يُنادِي على نفسه بالصحَّةِ...فأَعْلَى رُتَبِ البلاغة أن يحتجَّ للمذموم حتّى يخرجَه في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصيِّرَه في صورةِ المذموم)[٢٩].

هذا ضرب من المغالطة والسّفسطة والجدل، يدلّ على الطّور الكلاميّ للمفهوم، الّذي لم يكن المفهوم فيه ناضجًا، فالبلاغة (دُنُوُّ المأْخَذ وقَرع الحجّة)[٣٠]، وهي أيضًا: (الإفصاحُ عن حكمةٍ مُستَغْلِقةٍ و إبانةُ علمٍ مُشكِلٍ)[٣١]، فانساق أبو هلال العسكريّ وراء المفهوم الحجاجيّ على الرّغم ممّا وعد به[٣٢].

١٠- من المهمّ الإشارة إلى أنّ مفهوم البلاغة في طور الملحوظات الانطباعيّة المنتمية إلى الإطار العامّ الّذي هو إطار سيادة المفردة والمعجم الّذي لا يغادر الأثر البيئيّ، إنّما كان مفهومًا متجذّرًا في أصول طبيعة الأدب العربيّ عامّة الّتي هي طبيعة

شعريّة، ولمّا كانت هزّة القرآن ذات أثر قويّ فقد استجابت البلاغة طائعة لذلك التّحوّل، كما أنّ البلاغة الإغريقيّة قد نشأت في ظلّ أثر قضايا الملكيّة والحاجة إلى الخطابة والمحاججة حتّى استحالت إلى بلاغة ذات سمة منطقيّة الأصل، فكذلك البلاغة العربيّة، إذ اتّسمت في فهم الفاهمين العرب إلى وسطيّة بين الطّبع والصّنعة، فشهد مفهومها تغيّرًا لدى النّقدة والبلاغيّين، ذاك هو منشأ العلميّة؛ ومَا آل إليه أمر البلاغة من استجابة إلى قرع الحجّة بالحجّة والدّليل بالدّليل حول العقيدة والإعجاز، ولمّا كان الميزان هو الشّعر بوصفه المعجز الفنّيّ والتّخييليّ الّذي قيس إليه القرآن للبرهنة على نزول رتبة المعجز الفنّيّ التّخييليّ دون رتبة المعجز الإلهيّ، فقد سلك النّقد مسلك المحاججة والبرهان والتّحليل والتّعليل للفوز بالأمثل من الشّعر واتّخاذ ضعفه عن بلوغ رتبة القرآن دليلًا على إعجاز القرآن، ومن أوضح الأدلّة على ذلك أنّ الباقلّانيّ أورد في إعجاز القرآن قصيدة لامرئ القيس[٣٣]، ولا شكّ في أنّ هذا مسبوق بالمراحل الضّروريّة من جمع واستقراء في مجال اللّغة والأدب وتاريخهما.

١١- المحصول أنّ البلاغة بمفهومها الّذي رست عنده في هاتيك المرحلة باتت علمًا وفنًّا، فهي تتوسّط الطّبع والصّنعة، والشّعريّة والمنطق، والفنّ والعلميّة، فهي المعنيّة بجمال النّظام وتهذيب الجمال، واكتشاف أنساقه وقواعده في تجليّاته الكبرى الّتي هي الكلام؛ لأنّ وراء الكلام المعجِب نظامًا دقيقًا، فهناك جمال النّظام، وإخال أنّ الصّفة المنطقيّة إنّما أتت بها الحاجة إلى تمثّل المثال أي: اقتفاء أثر الفنّ المعجز في شكله الشّعريّ أو القرآنيّ؛ فظهرت الموازنة الّتي هي جنبة علميّة منطقيّة؛ لذا البلاغة استعمال أدوات التّعبير استعمالًا علميًّا وفنيًّا لإنتاج المعنى المؤثّر.

ولنذهب في هذا المقام إلى قول الرّمّانيّ: (وليست البلاغة إفهام المعنى لأنّه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيّي ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى لأنّه قد يتحقّق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره ونافر متكلّف وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)[٣٤]، هذا الكلام صريح الدّلالة على الجمع بين الجانبين العلميّ والفنّيّ؛ لأنّ (الإيصال) لا يكون إلّا على وفق قواعد

ومناهج وطرائق مهذّبة واعية، والاختيار المعجميّ كذلك فهو الاختيار الواعي عن قصد ودراية، و(القلب والحسن) فن وذائقة وجمال.

١٢ – البلاغة في الموروث - قراءة:

من يقرأ نعوت البلاغة وتعريفاتها يجد تعريفات متعدّدة، وقد نشدّتها في مصادر متعدّدة، وحاولت أن أرتّبها بحسب تسلسلها الزّمانيّ ما وسعني ذلك معتمدًا على سنة وفاة القائل ووفاة صاحب المصدر في حال تعذّرت معرفة القائل أو سنة وفاته، ورأيت أنّ ما جمعته منها كاف، ثمّ قرأتها وانتهيت إلى مستخلص منها، وتلك التّعريفات هي الآتي بيانها مع خلاصة قراءاتها:

ت	النص	المضمون
١	(سأل عامر بن الظَّرِب العَدوَانيّ(جاهليّ) حمامة بن رافع الدَّوْسِيَّ بين يدي بعض ملوك حمير فقال: من أبلغ الناس؟ قال: من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطَبَّقَ المفصل قبل التحريز)[٣٥].	تقديم اللّفظ/ الإيجاز/ إيضاح المطلوب من دون زيادة ولا نقصان.
٢	قال الإمام الحسن بن عليّ(ت٥٠هـ) عليهما السّلام البلاغة: (الإفصاحُ عن حكمةٍ مُستَغْلِقةٍ و إبانةُ علمٍ مُشكِلٍ)[٣٦].	إيضاح المعنى/ حكمة / علم (جانب عقليّ).
٣	صحار بن عيّاش العبديّ(٤٠هـ) البلاغة الإيجاز، و(الإيجاز... أن تُجيب فلا تبطئ وتقولَ فلا تخطئ)[٣٧].	الإيجاز(لفظ)/ البداهة وترك التّكلّف (الكفاية) / إصابة المعنى.
٤	صحار بن عيّاش العبديّ (٤٠هـ) البلاغة:(شيءٌ تَجيش به صدورُنا فتَقذِفُه على ألسنتنا)[٣٨].	الملكة والكفاية.
٥	قال عبيدالله بن عتبة – لعلّه عبيدالله بن عبدالله بن عتبة(ت٩٨هـ)– :البلاغة (دنوّ المأخذ وقرع الحجّة وقليل من كثير)[٣٩].	الإيجاز (لفظ) / حجاج / إصابة المعنى.
٦	وصف خالد بن صفوان (ت١٣٥هـ) الكلام الحسن بما (لذّ على الافواه وحسن في الاسماع)[٤٠] وَقَالَ: (أَحْسَنُ الكَلاَمِ مَا لَمْ يَكُنْ بِالبَدَوِيِّ المُغْرِبِ، وَلاَ بِالقُرَوِيِّ المُخَدَّجِ، وَلَكِنْ مَا شَرُفَتْ مَبَانِيْهُ، وَطَرُفَتْ مَعَانِيْهِ، وَلَذَّ عَلَى الأَفْوَاهِ، وَحَسُنَ فِي الأَسْمَاعِ).	حسن اللّفظ وجماله.
٧	قال خالد بن صفوان(ت١٣٥هـ): (ليس البلاغة بخفّة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنها إصابة المعنى والقَرْع بالحجة)[٤١]	إيضاح المعنى/ جانب عقليّ(حجاج).

٨	قال ابن المقفع (ت١٤٢هـ): (البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سَجْعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل)[٤٢]	العموم/ طرائق إيصال المعنى.
٩	قال ابن المقفع:(البلاغةُ كَشْفُ ما غَمُضَ من الحقّ وتصويرُ الحقّ في صورةِ الباطلِ)[٤٣]	حجاج / تأثير وإبداع وفنّ.
١٠	قال عمرو بن عبيد (ت١٤٣هـ) البلاغة: (تخيُّر اللّفظ في حسن الإفهام)[٤٤]	الإفهام / تقديم اللّفظ/ إيضاح المعنى.
١١	سئل عمرو بن عبيد:(ما البلاغة؟ قال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول. قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنا معاشر الأنبياء بَكّاءون». وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. فقال له السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة السكوت، وسقطات الصمت، فقال: ليس هذا أريد. فقال: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ، في حسن إفهام، قال: نعم. قال: إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت من الله سبحانه جزيل الثواب)[٤٥]	الوظيفة الأخلاقيّة الدّينيّة/ حسن التّأثير والتّلقّي/ تقديم اللّفظ / حسن طريقة التّأثير(الإقناع=محاججة).
١٢	عن ابن الأعرابيّ قال له المفضَّل بن محمّد الضّبيُّ (ت١٦٨هـ): (قلت لأعرابيّ منّا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجازُ في غير عَجْز، والإطناب في غير خَطَلٍ. قال ابن الأعرابيّ: فقلتُ للمفضّل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حَذْف الفضول وتقريب البعيد)[٤٦]	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ إصابة المعنى.

١٣	قال الخليل (ت١٧٥هـ): (البلاغة كلمة تكشف عن البقية)[٤٧]	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ إصابة المعنى.
١٤	قال الخليل: البلاغة (كل ما أدّى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طِبْقا، ولتلك الحال وَفْقا، وآخر كلامك لأوّله مشابها، وموارده لمصادره موازنا، فافعل)[٤٨] والبلاغة عنده أيضًا: (ما قَرُبَ طَرَفاه، وبعد منتهاه)[٤٩]	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ إصابة المعنى.
١٥	قال خلف الأحمر (ت١٨٠هـ): (البلاغة لمحة دالّة)[٥٠]	تقديم اللّفظ/ الإيجاز / إصابة المعنى.
	سئل جعفر بن يحيى البرمكيّ (ت١٨٧هـ): ما البيان؟ فقال: (أن يكون الاسمُ يحيط بمعناك ويجلّي عن مَغزاك، وتُخْرِجَه من الشِّرْكة ولا تستعين عليه بالفِكرة والّذي لا بُدّ له منه أن يكون سليمًا من التكلُّف، بعيدًا من الصّنعة، بريئًا من التعقّد، غنيًّا عن التأويل)[٥١]	تقديم اللّفظ/ البداهة والكفاية وترك الصّنعة والتّكلّف/ الوضوح وإصابة المعنى.
١٦	كتب جعفر بن يحيى بن خالد البَرْمَكِيّ إلى عمرو بن مسعدة: (إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرًا، وإذا كان الإيجاز كافيًا كان الإكثار عيًّا)[٥٢]	تقديم اللّفظ/ الإيجاز/ اللّفظ على قدر إيصال المعنى.
١٧	قال الأصمعي (ت٢١٦هـ): (ليست البلاغة بخفة اللسان ولا كثرة الهذيان ولكن بإصابة المعنى والقصد الى الحاجة وإن أبلغ الكلام ما لَم يكن بالقروي المجدَّع ولا البدوي المعرب)[٥٣]	إصابة المعنى والعناية باللّفظ والمعنى.
١٨	قال كلثوم بن عمرو العتّابيّ (ت٢٢٠هـ) البلاغة: (كلُّ مَنْ أفهمك حاجته من غير إعادةٍ ولا حُبْسَة ولا استعانةٍ فهو بليغ)[٥٤]	الوضوح/ الإيجاز/ سلامة النّطق.

١٩	في البيان والتّبيين للجاحظ (ت٢٥٥هـ): (قيل للفارسيّ: ما البلاغة ؟ قال: معرّفة الفَصْل من الوصل. وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الاقسام واختيار الكَلام. وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغَزارة يَوْمَ الإطالة. وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضُوح الدّلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة)[٥٥].	انسجام اللّفظ والمعنى/ إصابة المعنى والوضوح/ مناسبة المقام/ تقديم اللّفظ / الإيجاز/ الكفاية.
٢٠	سئل الكندي (ت٢٥٦هـ) عن البلاغة، فقال: (ركنها اللفظ، وهو على ثلاثة أنواع: فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به، ونوع تعرفة وتتكلم به، ونوع تعرفه ولا تتكلم به، وهو أحمدها)[٥٦].	تقديم اللّفظ/ القدرة على تخيّر اللّفظ.
٢١	في الرّسالة العذراء لابن المدبّر (ت٢٧٩هـ): قال الهنديّ: (هي البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم أن يدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقا، وربما كان الاطراق عنها أبلغ في الدَّرَك، وأحق بالظفر)[٥٧]. وقال آخر _ غير الهنديّ_:(جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحذق بما التبس من المعاني وغمض، وبما شرد عليك من اللفظ و تعذّر. ثم قال وزين ذلك كله، وبهاؤه وحلاوته، أن تكون الشمائل معتدلة، والألفاظ موزونة، واللهجة نقية. فإن جامعَ ذلك السنَّ والسمتَ والجمالَ وطولَ الصمت، فقد تمّ كل التمام)[٥٨].	عقل وحجاج/ مناسبة المقام/ الوضوح/ حسن الظّاهر/ سلامة النّطق.
٢٢	في الرّسالة العذراء لابن المدبّر(ت٢٧٩هـ): قال بعضهم: (يكفي من حظ البلاغة ألاّ يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع)[٥٩].	إصابة المعنى والوضوح/ انسجام أطراف الخطاب(المقام).
٢٣	ورد عند المبرد(ت٢٨٦هـ: (حق البلاغة احاطة القول...وان يقرّب بها البعيد)[٦٠].	الوضوح.
٢٤	عرّف ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) البلاغة أو نعتها بـ(بلوغ المعنى ولما يَطُلْ سَفَرَ الكلام)[٦١].	الإيجاز والوضوح.

٢٥	قال الآمديّ(ت٣٧٠هـ):(البلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سَهْلة عذْبة مستعملة سليمة من التكلّف]كافية[لا تبلغ الهَذَر الزائد على قدر الحاجة ولا تنقص نقصانًا يقف دون الغاية)[٦٢].	تقديم اللّفظ / الوضوح.
٢٦	قال الرّمّانيّ (ت٣٨٤هـ): (وليست البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى لأنه قد يحقّق اللفظ على المعنى وهو غثّ مستكره ونافر متكلّف وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)[٦٣].	تقديم اللّفظ وتخيّره/ التّأثير.
٢٧	قال الرّمّانيّ: (أصل البلاغة الطّبع، ولها – مع ذلك– آلات تعين عليها، وتوصل للقوة فيها، وتكون ميزانًا لها، وفاصلة بينها وبين غيرها، وهي ثمانية أضرب: الإيجاز، والاستعارة، والتشبيه، والبيان، والنظم، والتصرّف، والمشاكلة، والمثل)[٦٤].	كفاية وعلم.
٢٨	أورد أبو هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ):قال بعض الهند: (جُمَّاع البلاغة البَصَرُ بالحجَّةِ والمعرفةُ بمواقع الفُرْصَة ومن البَصَرِ بالحجَّةِ أَنْ يَدَعَ الإفصَاح إلى الكنايةِ عنها إذا كان طريقُ الإفصاحِ وَعْرًا وكانت الكنايةُ أحصر نَفْعًا)[٦٥].	عقل وحجاج.
٢٩	قال أبو هلال العسكريّ(ت٣٩٥هـ): البلاغة (كلُّ ما تُبَلِّغُ به المعنى قلبَ السامع فتمكِّنه في نفسه كتمكُّنِهِ في نفسك مع صُورةٍ مقبولة ومعرض حسن)[٦٦].	تأثير/ تخيّر اللّفظ.
٣٠	قال ابن وهب الكاتب (ق٤):البلاغة (القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان)[٦٧].	تقديم اللّفظ/ إصابة المعنى.

٣١	من كلام أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثّعالبيّ(ت٤٢٩هـ)، (قال: قال بعضهم: البلاغة ما صعب على التعاطي وسهل على الفِطْنَة. وقال: خير الكلام ما قلّ ودلّ، وجلّ ولم يُمَلّ. وقال: أبلغ الكلام ما حسن إيجازه، وقلّ مجَازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه. قال: وقيل: البليغ مَنْ يجتني من الألفاظ نَوَّارَهَا، ومن المعاني ثمارها)[٦٨].	ملكة / الإيجاز(تقديم اللّفظ).
٣٢	ورد في العمدة لابن رشيق (ت٤٥٦هـ) سئل بعض البلغاء: (ما البلاغة؟ فقال: قليل يُفْهَم، وكثير لا يُسْأم)[٦٩].	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ إصابة المعنى / التّأثير.
٣٣	أورد ابن رشيق: (قال آخر: البلاغة إجاعة اللّفظ، وإشباع المعنى)[٧٠].	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ غزارة المعنى.
٣٤	أورد ابن رشيق: سئل أحد عن البلاغة (فقال: مَعَانٍ كثيرة، في ألفاظ قليلة)[٧١].	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ غزارة المعنى.
٣٥	أورد ابن رشيق: قيل لأحدهم: (ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحُسْنُ الإيجاز)[٧٢].	تقديم اللّفظ / الإيجاز/ غزارة المعنى.
٣٦	أورد ابن رشيق: سئل بعض الأعراب: (مَنْ أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظًا، وأحسنهم بَدِيهِيَّةً)[٧٣].	تقديم اللّفظ / كفاية.
٣٧	أورد ابن رشيق(ت٤٥٦هـ): قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال:(إبلاغ المتكلّم حَاجَتَهُ بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة)[٧٤].	مقام وأسلوب.
٣٨	أورد ابن رشيق: قال آخر: البلاغة(أن تُفْهِمَ المخاطَبَ بقدر فهمه، من غير تعب عليك)[٧٥].	مقام وأسلوب.
٣٩	أورد ابن رشيق قيل: البلاغة (حسن العبارة، مع صحة الدلالة)[٧٦].	تقديم اللّفظ/ إصابة المعنى.
٤٠	أورد ابن رشيق قيل: البلاغة (أن يكون أول كلامك يدلّ على آخره، وآخره يرتبط بأوله)[٧٧].	وحدة عضويّة.
٤١	قيل: (البلاغة القوة على البيان، مع حسن النظام)[٧٨].	كفاية / فنّ/ لفظ.
٤٢	قال ابن رشيق: (ثم نرجع إلى وصف البلاغة، بعد ما أفَضْنَا ووشّحنا هذا الباب من ذكر السيد، فنقول: وقالوا: البلاغة ضد العيّ، والعيّ: العجز عن البيان)[٧٩].	ملكة.

٤٣	أورد ابن رشيق: قيل: (لا يكون الكلامُ يستحقّ اسمَ البلاغة حتَّى يسابقَ معناه لفظَه، ولفظُهُ معناه، فلا يكونَ لفظُه إلى سمعك أسبَقَ من معناه إلى قلبك)[٨٠].	تقديم اللّفظ / إصابة المعنى.
٤٤	أورد ابن رشيق قيل لبعض الجلة: (ما البلاغة؟ فقال: تقصير الطويل، وتطويل القصير، يعني بذلك القدرة على الكلام)[٨١].	ملكة.
٤٥	قال الرّازيّ(ت٦٠٦هـ): البلاغة (بُلوغُ الرَّجُل بِعبارتِهِ كُنْهَ ما في قلبِهِ مَعَ الاحتراز عن الإيجاز المُخِلّ والإطالة المُمِلَّة)[٨٢].	تقديم اللّفظ/ إصابة المعنى.
٤٦	قال القزوينيّ(ت٧٣٩هـ): (البَلَاغَةُ فِي الكلامِ مُطَابقَتُهُ لِمُقْتَضَى الحَالِ مَعَ فصَاحَتِهِ)[٨٣].	تخيّر اللّفظ / مقام.

١٣- ويمكن أن نجمل المفهوم في أنظار هي:

١- البلاغة الإيجاز والعناية باللّفظ وانسجامه مع المعنى، ويتعالق هذا النّظر بسلامة جهاز النّطق وحسن المظهر.

٢- البلاغة إصابة المعنى ووضوحه وغزارته وانسجامه مع اللّفظ.

٣ - البلاغة الكفاية والانسجام مع المقام والتّأثير.

٤- البلاغة الحجاج والجانب العقليّ.

٥- البلاغةالأسلوب والإبداع والفنّ والوحدة العضويّة.

١٤- سأنتقي بعض الأقوال وأقرؤها:

عرّف عبد الله بن المقفّع (ت١٤٢هـ) البلاغة بأنّها: (اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها، ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سَجْعا وخُطبا، ومنها ما يكون رسائل)[٨٤].

واضح أنّ ابن المقفّع قدّم بين يدي تعريفه ضابطة احترازيّة هي (الاسم الجامع)؛ لئلّا يُحمل التّعريف على بلاغة الكلام حسب، وإنّما أراد التّأثير البالغ غايته فيما عدّد من مصاديقه، ويقودنا هذا الفهم إلى حقل مستقلّ يتعالق مع بلاغة الكلام هو الدّلالة، فكأنّ ابن المقفّع عرّف الدّلالة، وهذا اتّساع في الاصطلاح مستمدّ من المفهوم المنطلَق يقودنا بلا ريب إلى أنواع

الدّلالات عند الجاحظ (اللّفظ والخطّ والإشارة والعَقْد والنِّصبة)[٨٥].

وعرّفها عمرو بن عبيد(ت١٤٣هـ) الّذي هو بصريّ معتزليّ، بأنّها(تخيّر اللّفظ في حسن الإفهام)[٨٦]، وليس بخافٍ ما يتضمّنه هذا التّعبير من جَنبَة معرفيّة علميّة وتجربة واستشراف، وكذا الإفهام الّذي يستلزم المعرفة بطرائق التّأثير ولا يخفى الجانب اللّغويّ إذ جاء اللّفظ فصلًا في التّعريف كما يتّضح المعنى بمجيء الإفهام فصلًا كذلك، وقد اجتمع عنصرا الجمال والذّائقة في حسن الإفهام إلى تلك العناصر، ولا ريب في تبادر الرّكنيّة الثّنائيّة المؤلّفة من المؤثّر والمتلقّي في هذا التّعريف.

وفي صحيفة بشر بن المعتمر(ت٢١٠هـ) الّتي هي من أقدم النّصوص العربيّة المنهجيّة في التّراث نجد مناسبة الصّحيفة دالّة على المفهوم المنطقيّ الاقناعيّ الخطابيّ؛ لأنّ بشرًا مرّ بإبراهيم ابن جبلة الخطيب السّكونيّ[٨٧] يعلّم الصّبية الخطابة فطلب بشر منهم أن يضربوا عن ذلك صفحًا ودفع إليهم صحيفته البلاغيّة نلحظ البلاغة هنا تحلّ محلّ الخطابة ولمّا كانت الخطابة قائمة على الإفهام والإقناع وموظفة لأجلهما فكذلك البلاغة في مفهومها في تلك الحقبة، ولا يفوتنا التّنبيه على أنّ الصّحيفة كتبها رجل معتزليّ ونقلها معتزليّ.

أورد الجاحظ: (لا يكون الكلامُ يستحقّ اسمَ البلاغة حتّى يسابقَ معناه لفظَه، ولفظُهُ معناه، فلا يكونَ لفظُه إلى سمعك أسبَقَ من معناه إلى قلبك)[٨٨].

لنا أن نعدّ هذا تعريفًا ليس على شرائط التّعريف المنطقيّ، فهو نعت أو إحساس وفهم، تبيّن لنا منه الملازمة بين اللّفظ والمعنى، ويشترك اللّفظ والمعنى بمشتركات واحدة تجعل كلًّا منهما ملازمًا الآخر، فلا مناصّ للفظ من مزايًا وصفات تجعله سريعًا إلى السّمع مأنوسًا فيه محبوبًا لدى السّامع، وكذا المعنى فلابدّ من أن تتوافر فيه سمات ومزايًا وصفات تجعله متبادرًا مأنوسًا محبوبًا، فهنا اشتراك مع الاستقلال هو اشتراك ثنائيّة اللّفظ والمعنى واشتراك أطراف الخطاب، وهنا أيضًا سمع (سمعك _ سمع المتلقّي _) و قلب(قلبك _ قلب المتلقّي _) وهناك باثّ يستهدف ذينك الشّيئين (السّمع والقلب)، وهذا الوصف يُعنى بالرّكنيّة العامّة في البلاغة _ ركنيّة الباثّ والمتلقّي _ وركنيّة اللّفظ والمعنى،

وتفضي ركنيّة اللّفظ والمعنى إلى الرّكنيّة أو الثّنائيّة الأخرى؛ لأنّ الجاحظ قدّم اللّفظ والمعنى، وهذا جعل المؤثّر والمتلقّي مختفيين بعض الاختفاء وراء اللّفظ والمعنى لكنّ المهمّ أنّ الملازمة القطعيّة بين اللّفظ والمعنى في المزايا والخصائص تشفّ عن لابديّة المماثلة في الثّنائيّة الرّكنيّة الأخرى الّتي هي المؤثّر والمتلقّي، ومنشأ هذه الملازمة هو الرّكنيّة نفسها، أي: لا يمكن الاستغناء عن الرّكن.

وعرّف الشّاعر العبّاسيّ كلثوم بن عمرو العتّابيّ(ت٢٢٠هـ) البلاغة بأنّها: (كلُّ مَنْ أفهمك حاجته من غير إعادةٍ ولا حُبْسة ولا استعانةٍ فهو بليغ)[٨٩] وعقّب أبو هلال العسكريّ على هذا بقوله:(لو حَمَلْنَا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكونَ الأَلْكَنُ بليغا؛ لأنه يُفْهِمنا حاجته، بل ويلزم أن يكونَ كلُّ الناس بُلَغَاء حتّى الأطفال؛ لأنَّ كلَّ أحد لا يعدم أن يدلَّ على غرضه بعُجْمَتِه أو لُكْنَته أو إيمائه أو إشارته، بل لزم أن يكونَ السِّنَّوْر بليغا، لأنَّا نستدلّ بضُغَائه على كثير من إرادته وهذا ظاهرُ الإحالة)[٩٠] فالبلاغة عنده قدرة على الإفهام ولعلّ هذا القول ذو قربى من مراد الجاحظ بقوله: (لا يكون الكلامُ يستحق اسمَ البلاغة حتَّى يسابقَ معناه لفظَه ولفظُهُ معناه)[٩١]، وخليق بالإشارة أنّ تعريفَ كلثوم بن عمرو تعريفُ البليغ وليس تعريف البلاغة، وكأنّ العتّابيّ يعرّف البلاغة بوظيفتها الميدانيّة بوصفها إجراءً، يزيد على هذا أراه يؤكّد الرّكنيّة الّتي مضت الإشارة إليها كما يؤكّد الوجهة التّداوليّة في البلاغة، ويكاد يصل معنى البلاغة عنده إلى منتهى اليسر في التّكوين والصّياغة وهذا ما يتبادر من الاستغناء عن الاستعانة، ولا شكّ في أنّ هذه سعة وتيسير يجعلان البلاغة ميسورة متاحة، أمّا ما آلت إليه البلاغة بعدُ فلا يتّفق مع هذا التّصوّر؛ لأنّ البلاغة غدت علمًا وأفانين وزخرفًا.

أجد تعريف العتّابيّ يمنحنا رؤية عن التّصور السّاذج عن ماهية البلاغة في بعض الأوساط الثّقافيّة يومذاك، على الرّغم من أنّه يساير اتّجاه الفهم الواعي الّذي اشتدّ خلال سيرورته حتّى انتهى إلى ما هو عليه اليوم.

الملحوظ أنّ هذه المفهومات ليست تفصيليّة وكأنّ البلاغة محسوسة إحساسًا ومستودعة في مكنون المجرّد من الذّائقة المنجزة والملكة التّنفيذيّة، فمفهوم

البلاغة ليس غائبًا؛ لأنّ البلاغة ليست غائبة لكنه غير مهذّب بعدُ تهذيبًا قائمًا على الاستقراء والفرز والتّقنين، فلا ذكر للمجاز والاستعارة والتّشبيه والكناية وغيرها.

هنا نقول على سبيل التّنبيه والإشارة: قد يسأل سائل عن التّفاصيل، وكيف يكون التّخيّر؟ وكيف يتحقّق حسن الإفهام؟ وكيف يسابق المعنى اللّفظَ واللّفظُ المعنى؟ هذا كلّه مسكوت عنه، ولا تفصح عنه مقالات البلاغيّين في هذه المرحلة التّأسيسيّة. ويهمني القول متخطّيًا تلك التّفصيلات في السّؤالات المذكورة: أنّ الصّياغات التّعريفيّة إبّان هذه المرحلة بل في غيرها محلّاة بالصّياغة الأدبيّة المستمدّة من النّسغ المعرفيّ الثّقافيّ.

النتيجة الّتي نرسو عندها بحسب ما ذُكر من شذرات مفهوميّة موروثة، أنّ مفهوم البلاغة والعناية به بوصفه مشرع فلسفة البلاغة وماهيتها بدأ منذ منتصف القرن الثّاني واستمر حتّى ألّف الجاحظ كتابيه وبعده ألّف ابن المعتزّ كتابه البديع الّذي يعدّ جنى المرحلة التّأسيسيّة الجاحظيّة؛ لأنّه أقامه على رؤية نقديّة وتضمّن خمسة أبواب هي الاستعارة والتّجنيس والمطابقة وردّ العجز على الصّدر والمذهب الكلاميّ، فضلًا عن الرّكيزة المنهجيّة العميقة الّتي هي استقراء الموروث والموازنة.

١٥- خُتم القرن الثّالث الهجريّ بجهد عبد الله بن المعتزّ وكتابه البديع وحلّ القرن الرّابع الّذي ازدهر فيه الاهتمام بالبلاغة وماهيّتها وتعريفها وتقسيماتها ولا غرابة في هذا؛ لأنّ ثمّة نشاطًا عاليًا حصل في استعمال البديع مع اتّساع مجال البحث بإعجاز القرآن الكريم الّذي بدأه قبل أبي عبيدة في مجاز القرآن وتلاه الجاحظ في كتابه الضّائع نظم القرآن، وبعده نجد ابن وهب الكاتب (ت٣٣٥هـ) ممّن عرّفوا البلاغة بأنّها: (القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان)[٩٢]، ويظهر الرّمانيّ (ت٣٨٦هـ) برسالته النّكت في إعجاز القرآن الّذي قال معرّفًا البلاغة وفاهما إيّاها بقوله: (فأمّا البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو أعلى طبقة ومنها ما هو أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنّه قد

يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيّي، ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللّفظ على المعنى؛ لأنّه قد يحقّق اللّفظ على المعنى وهو غثّ مستكره ونافر ومتكلّف، وإنّما البلاغة ايصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ)[٩٣]

لنجعل نصّ الرّمانيّ مدخلًا ونأخذ بآخره حسب، الّذي هو تعريف البلاغة، ونستنتج منه أصلين: الإبلاغ والأبلغ، أو ما يمكن أن نسمّيه جمال الإيصال، هنا يرى بعض الباحثين أنّ مفهوم البلاغة المتمظهر بتعريف البيان عند الجاحظ: (البيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى...)[٩٤]، قد تطوّر عند الرّمانيّ فيما ذُكر، وفي قوله في البيان: (هو الاحضار لما يظهر به تميّز الشيء من غيره في الادراك)[٩٥]، الّذي يلوح لي أنّ هذا التّطوّر باهت فلسفيّ مستمدّ من المنحى الكلاميّ الّذي انتهجه الرّمّانيّ؛ لأنّه كان متأثّرًا بالجاحظ، ولعلّ أمارة هذا التّأثّر قوله: (والبيان اربعة اقسام: كلام وحال واشارة وعلامة)[٩٦]، هذه هي عينها أضرب الدّلالة عند الجاحظ. ولعلّه من النّافع القول: إنّ مقالة الرّمانيّ صريحة في الجمع بين الجانبين العلميّ والفنيّ فالإيصال تقنين ونظم وقواعد ومنهج والاختيار كذلك قصد ومعجميّة والقلب والحُسن فنّ وذائقة وجمال.

ونجد أبا هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ) يقول في البلاغة: (كلُّ ما تُبَلّغُ به المعنى قلبَ السامع فتمكّنه في نفسه كتمكُّنِهِ في نفسك مع صُورةٍ مقبولة ومعرض حسن)[٩٧]، البلاغة بحسب هذا الفهم شيء خارجيّ مستقلّ في كينونته بيد أنّ المتلقّي مسكون به فهي وسيلة بمعنى قدرة وملكة ذات صبغة هي صبغة السّعة الّتي أشرنا إليها مستفادة من لفظ (كلّ)، يزيد على هذا أنّ فهم العسكريّ مرتكز إلى الآتي بيانه:

١- المؤثّر

٢- المتلقّي

٣- الأدوات المؤثّرة

٤- الجمال والفنيّة

١٦- البلاغة لها مفهوم تاريخيّ غير مستقرّ ومتغيّر بتغيّر الأطوار الثّقافيّة عبر الزّمان، ومن يقرأ كلام البلاغيّين والنّقدة يقف على هذه الحقيقة إذ مفهومها عند الجاحظ غيره عند عبد القاهر الّذي هو غيره عند السّكّاكيّ وهكذا.

ثمّ نغادر هذه المرحلة إلى عبد القاهر الجرجانيّ(ت٤٧١هـ) الّذي من لطيف المدخل إليه قوله: (ولم أزل منذ خدمت العلّم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والايماء والإشارة في الخفاء وبعضه كالتّنبيه على مكان الخبء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج... ووجدت المعوّل عليه على ان ههنا نظما وترتيبا وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا ونسجا وتحبيرا وان سبيل هذه المعاني في الكلام الّذي هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء الّتي هي حقيقة فيها وانه كما يفضل هناك النظم النظم والتأليف التأليف)[٩٨]

هنا قضيتان: أولاهما لم تكن البلاغة علمًا قائمًا يمكن الاصطلاح عليه، وأخراهما أنّ الجرجانيّ إزاء مهمّة إيجاد أسس بلاغة محددة، هي بلاغة القرآن متوسّلًا ببلاغة الشّعر الّتي جهد الباقلّانيّ في إعجاز القرآن ليغضّ منها أو ينقص من وزنها؛ لتفوّقها بلاغة القرآن عبر الموازنة بين الشّعر والقرآن حتّى أنّه ذكر قصيدة لامرئ القيس موازنًا إيّاها بالقرآن وعدّت هذه المحاولة الباقلّانيّة إجراءً لقطع صلة الشّعر بالقرآن، أمّا الجرجانيّ فكان ينتهج نهجًا آخر هو الوقوف على بلاغة الشّعر العربيّ وبلاغة القرآن ثمّ الموازنة ليتّضح علو بلاغة القرآن.

بعد هذا يأتي جهد السّكّاكيّ (٦٢٦هـ) الّذي عرّف البلاغة بأنّها(بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ولها أعني البلاغة طرفان أعلى وأسفل)[٩٩].

ومن أسباب اختلاف مفهوم البلاغة وتغيّره إلى حدّ الاضطراب أحيانًا أنّ البلاغة ذات صلة بعلومٍ متعدّدةٍ وقد عبّر حازم القرطاجنّيّ(ت٦٤٨هـ) في منهاجه عن ذلك بالقول: (وكيف يظنّ إنسان أنّ صناعة البلاغة يتأتّى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها)[١٠٠] هذه هي البلاغة كلما سألنا: ما البلاغة؟ كان الجواب: ما البلاغة؟

ويمكن أن نجد ثمرة من عطاء هذا الفهم منه تداوليّ وآخر لغويّ وغيرهما ثقافيّ وللمستزيد أن يبحث عن خبيئه.

قال الطّوفيّ (ت٧١٦هـ) في كتابه

الإكسير: (فان قلت: ما فائدة ورود هذه الأقسام الّتي يحتاج بعض قرائها إلى التفسير في القرآن...قلت: فائدته من وجوه: أحدها ان القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم وهي مشتملة على القسمين أعني المتضح وغيره وكلاهما عندهم بليغ حسن في موضعه... فلو خلا القرآن من أحدهما لكان مقصرا عن رتبة اللّغة فلا يصلح إذن للإعجاز)[١٠١]

نلحظ الطّوفيّ يثبت أنّ الغموض - غموض المعنى- أو ما يمكن أن نسمّيه التّغميض الّذي هو سمة شعريّة من أسباب البلاغة والحسن.

يزيد على هذا قوله: (بليغ حسن) يفيدنا أنّ البليغ ذو رتب منها البليغ الحسن والبليغ حسب(ولا أقول غير الحسن) وهذا يدعو إلى السّؤال: كيف يكون الكلام بليغًا من دون أن يكون حسنًا؟ ولعلّ الجواب: أنّ البليغ - بلحاظ الغموض- منه ما يكون واضح المعنى الّذي هو البليغ ومنه ما يكون غامض المعنى الّذي هو بليغ أيضًا، أمّا رتبة البليغ الحسن فهي مقاميّة؛ لأنّ الواضح يحسن بوضوحه في مقام يقتضي الوضوح والغامض يحسن بغموضه في مقامه.

ويدلّنا قوله على التّداول في مفهوم البليغ بقوله: (وهي مشتملة على القسمين أعني المتضح وغيره) وقوله: (لكان مقصرا عن رتبة اللّغة) فالإيضاح أو الوضوح جزء من إنجاز التّواصل اللّغويّ مثلما الغموض كذلك، وجعل هذا سمة لغويّة مغروسة فيها، ولعلّه بذا خرج باللّغة إلى معنى التّواصل وكانت اللّغة عنده هي التّواصل، والاسهاب في بيان التّواصل بالغموض غير محمود في هذا المقام.

ويهمّني القول أيضًا: إنّه جعل حيازة القسمين تمامًا لرتبة اللّغة، وأحسب هذه الرّتبة من جهة اللّغة بما هي لغة، الرّتبة الأقلّ الّتي يحدّها الوضوح والغموض، وبعد أن ينجز ذانك الحدّان تتّجه اللّغة نحو حدّ الرّتبة الأعلى الّذي له مقتضياته، وقد أشار الرّمانيّ إلى رتب البلاغة ودرجاتها وأخذ عنه ذلك من تأثّر به كالباقلّانيّ وسواه[١٠٢]،

من نافلة القول: إنّ ما قلناه من أنّ التغميض من سمات الشّعر يقودنا إلى معرّفة مفهوم الحسن الّذي قال به الطّوفيّ؛ لأنّ الشّعريّة صفة جماليّة مطلقة حسيّة وغير حسيّة فالكلام البليغ يرقى إلى البليغ الحسن باكتسابه الصّفة الشّعريّة (الجماليّة) الّتي هي

في مذهب الطّوفيّ الغموض، الّذي هو عامّة ضروريّ لتحقّق صفة اللّغة، وبعد هذا تأتي رتبة الإعجاز في القرآن، وكأنّي بالطّوفيّ أراد القول: كيف يكون القرآن معجزًا من دون أن يكون حائزًا على المقدمة الضّروريّة ابتداءً الّتي هي اللّغة وتلك المقدمة لا تكون إلّا بتوازي الوضوح والغموض بوصفهما خطّي سيرورة جدليّة.

ولعلّ واقع البلاغة الطّبيعيّ هذا متوافر في الرّؤية المتأخّرة في تعريف القزوينيّ (ت ٧٣٩هـ): (البَلَاغَةُ فِي الكلامِ مُطَابَقَتُهُ لِمُقْتَضَى الحَالِ مَعَ فصَاحَتِهِ)[١٠٣]، فلمّا كانت الحال عامّة غير مقيّدة ومتغيّرة فإنّ البلاغة كذلك.

خاتمة البحث ونتائجه

١- بدأ البحث البلاغيّ في آراء وملحوظات نظريّة انطباعيّة ذوقيّة مع نزر من التّعليل، ثمّ آل الأمر إلى العلميّة والتّعليل والنّظر، وحدث ذلك في مرحلة البحث في إعجاز القرآن صعودًا إلى اكتشاف جمال النّظم.

٢- صارت البلاغة علمًا بعد أن كانت معرفة عامّة، وحازت العلميّة من تعالقها بالمنطق وتجلّى ذلك في نشدان الصّحّة إلى جانب العناية بالجمال.

٣- ظهرت المعياريّة من أجل تمثّل المثال واقتفاء أثر الفنّ في شكله الشّعريّ أو القرآنيّ الّذي ظهرت العناية به تحت خيمة الموازنة والمقارنة بوصفهما إجراءً علميًّا منهجيًّا له صفة الأداة لإثبات الإعجاز.

٥- الصّلة بين لفظ البلاغة ومعناه الأصل، مفيدة لإدراك المَنشأ المعرّفيّ بينهما، الّذي هو منشأ بيئيّ؛ حسيّ مكانيّ في الأصل، آل إلى بيئيّ مجتازٍ المكانيّة، ثمّ تحوّل في الفكر العربيّ إلى مطلق الغاية. تعدّدت مفهومات البلاغة بتعدّد الفاهمين، فضلًا عن تعدّد أنساغ المفهوم، وكثرت تعريفاتها الّتي كان جلّها نعوتًا وليس تعريفات جامعة مانعة.

٦- كانت المرحلة الأولى والتّأسيسيّة لصياغة المفهومات والتّعريفات، مفعمة بالأنا والتّجزيئيّة؛ لأنّ حقبة صياغة التّعريف حقبة الثّقافة الشّفاهيّة والطّور الشّفاهيّ ذي الصّبغة الانطباعيّة غير المهذّبة بالنّظر والتّأمّل والاستقراء، الّتي هي حقبة التّنافس الشّفاهيّ المنبثق عن غلبة الحواس والرّغائب.

٧- بلسم أدواء المفهوم يقوم على الخروج من حيّز الجملة إلى الأسلوب.

الهوامش:

١- المعجم الفلسفيّ لجميل صليبا: ٢/ ٤٠٣.

٢- ينظر: مقدّمة كتاب نقد النّثر المنسوب لقدامة بن جعفر: ٤. بحث د. طه حسين (البيان العربيّ).

٣- ينظر: م. ن: ١٥-١٧.

٤- المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر لابن الأثير (ت ٦٣٧ه): ١/ ٩٠.

٥- التّفكير البلاغيّ عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس: ١١٣.

٦- ينظر: المثل السّائر: ١/ ٩٤.

٧- معجم مقاييس اللّغة لابن فارس (ت ٣٩٥هـ): مادة (ب ل غ).

٨- ينظر: م. ن: مادة (ب ل غ).

٩- دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيّات: ٦٧.

١٠- البيان والتّبيين للجاحظ(ت٢٥٥ه): ١/ ١١٥.

١١- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانيّ(ت ٤٥٧هـ): ١/ ٢٤٥.

١٢- م. ن: ١/ ٢٤٦.

١٣- الصّناعتين لأبي هلال العسكريّ (ت٣٩٥ه): ١٦.

١٤- البلاغة للمبرّد(ت٢٨٥ه): ٨١.

١٥- البيان والتّبيين: ١/ ٨٨.

١٦- البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب (ق ٤ه): ١٦٣.

١٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجيّ(ت ٤٦٦ه): ٥٩.

١٨- التّلخيص في علوم البلاغة للقزوينيّ(ت٧٣٩ه): ٣٣.

١٩- كتاب الحيوان للجاحظ:٣٣.

٢٠- البيان والتّبيين: ١/ ١٣٥.

٢١- م. ن: ١/ ١٣٩.

٢٢- ينظر: م. ن:١/ ٩٢.

٢٣- الصّناعتين: ٩.

٢٤- ينظر: م. ن: ٩.

٢٥- ينظر: م. ن:٩.

٢٦- م. ن: ١٦.

٢٧- م. ن: ١٥.

٢٨- م. ن: ٥٣.

٢٩- م. ن: ٥٣.

٣٠- م. ن: ١٦.

٣١- ينظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكريّ(ت٣٩٥ه): ١/ ٤٣٥. ونُسب القول إلى الإمام عليّ عليه السّلام في نهاية

الأَرب، ينظر: نهاية الأَرب: ٧ / ص٨.

٣٢- ينظر: الصّناعتين: ٩.

٣٣- ينظر: إعجاز القرآن للباقلّانيّ(ت٤٠٣هـ): ١٥٩.

٣٤- النّكت في إعجاز القرآن للرّمّانيّ (ت٣٨٤هـ) - في ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن-:٧٥.

٣٥- العمدة ١/ ٢٤٥.

٣٦- ينظر: ديوان المعاني: ١/ ٤٣٥.

٣٧- البيان والتّبيين: ١/ ٩٦.

٣٨- م. ن: ١/ ٩٦.

٣٩- الصّناعتين:١٦.

٤٠- سير أعلام النّبلاء للذّهبيّ(ت٧٤٨ه):٦/ ٢٢٦.

٤١- الرّسالة العذراء لإبراهيم بن المدبّر(ت٢٧٩ه): ٤٦.

٤٢- البيان والتّبيين: ١/ ١١٥.

٤٣- الصّناعتين: ٥٣.

٤٤- البيان والتّبيين: ١/ ١١٤.

٤٥- الرّسالة العذراء: ٤٧.

٤٦- البيان والتّبيين: ١/ ٩٧.

٤٧- العمدة: ١/ ٢٤٢.

٤٨- الرّسالة العذراء:٤٨.

٤٩- العمدة: ١/ ٢٤٥.

٥٠- م. ن: ١/ ٢٤٢.

٥١- البيان والتّبيين: ١/ ١٠٦.

٥٢- العمدة (٤٥٦): ١/ ٢٤٢.

٥٣- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم محمّد بن حِبان التّميميّ البستيّ(ت٣٥٤هـ): ٢١١.

٥٤- البيان والتّبيين: ١/ ١١٣.

٥٥- م. ن ١/ ٨٨.

٥٦- العمدة: ١/ ٢٤٧.

٥٧- الرّسالة العذراء: ٤٥.

٥٨- م. ن:٤٥.

٥٩- م. ن:٤٧.

٦٠- البلاغة للمبرّد:٨١.

٦١- العمدة: ١/ ٢٤٦.

٦٢- الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ للآمديّ (ت ٣٧٠ه):١/ ٤٢٤.

٦٣- النّكت:٧٥.

٦٤- العمدة: ١/ ٢٤٣.

٦٥- الصّناعتين: ١٥.

٦٦- م. ن: ١٠.

٦٧- البرهان: ١٦٣.

٦٨- العمدة: ١/ ٢٤٦.

٦٩- م. ن: ١/ ٢٤٢.

٧٠- م. ن: ١/ ٢٤٢.

٧١- م. ن: ١/ ٢٤٢.

٧٢- م. ن: ١/ ٢٤٢.

٧٣- م. ن: ١/ ٢٤٢.

٧٤- م. ن: ١/ ٢٤٤.

٧٥- م. ن: ١/ ٢٤٤.

٧٦- م. ن: ١/ ٢٤٤.

٧٧- م. ن: ١/ ٢٤٤.

٧٨- م. ن: ١/ ٢٤٣.

٧٩- م. ن: ١/ ٢٤٥.

٨٠- البيان والتّبيين: ١/ ١١٥، وينظر: العمدة: ١/ ٢٤٥.

٨١- العمدة: ١/ ٢٤٥.

٨٢- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرّازيّ(ت ٦٠٦هـ): ٣١.

٨٣- التّلخيص: ٣٣.

٨٤- البيان والتّبيين: ١/ ١١٥.

٨٥- م. ن: ١/ ٧٦.

٨٦- م. ن:١/ ١١٤.

٨٧- ينظر: البيان والتّبيين: ١/ ١٣٥، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، لابن منظور(ت٧١١هـ): ٤١.

٨٨- البيان والتّبيين: ١/ ١١٥.

٨٩- م. ن: ١/ ١١٣.

٩٠- الصّناعتين: ١١.

٩١- البيان والتّبيين:١/ ١١٥.

٩٢- البرهان: ١٢٩.

٩٣- النّكت: ٧٥.

٩٤- البيان والتّبيين: ٧٦.

٩٥- النّكت: ١٠٦.

٩٦- م. ن: ١٠٦.

٩٧- الصّناعتين: ١٠.

٩٨- دلائل الإعجاز للجرجانيّ (ت٤٧٤هـ): ٣٤.

٩٩- مفتاح العلّوم للسّكّاكيّ(ت٦٢٦ه): ٥٢٦.

١٠٠- منهاج البلغاء وسراج الأدباء للقرطاجنّيّ(ت ٦٤٨هـ): ٨٨.

١٠١- الاكسير للطّوفيّ(ت٧١٦ه): ٣٤.

١٠٢- ينظر نظريّة البلاغة متابعة لجماليّات الأَسْلَبة العربيّة لعبد الملك مرتاض: ١٠٥.

١٠٣- التّلخيص: ٣٣.

المصادر والمراجع:

١- إعجاز القرآن، أبو بكر محمّد بن الطّيّب الباقلّانيّ(ت٤٠٣هـ)، تحقيق: السّيّد أحمد صقر، ط٥، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧م.

٢- الإكسير في علم التّفسير، سليمان بن عبد القويّ بن عبد الكريم الصّرصريّ البغداديّ الطّوفيّ(ت٧٣٦ه)،تحقيق: د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب القاهرة،(د.ت).

٣- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب(ق٤)، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثيّ، ساعدت جامعة بغداد على نشره. ط١٣٨٧،١هـ =١٩٦٧.

٤- البلاغة، أبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد(ت ٢٨٥ه) تحقيق: د. رمضان عبد التّوّاب ط٢، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة ١٤٠٥ه = ١٩٨٥م.

٥- البيان والتّبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥ه)، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، ط٥، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدنيّ، المؤسّسة السّعوديّة بمصر، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.

٦- التّفكير البلاغيّ عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، د. حمّادي صمّود، منشورات الجامعة التّونسيّة، المطبعة الرّسميّة للجمهوريّة التّونسيّة، ١٩٨١م.

٧- التّلخيص في علوم البلاغة، جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمن القزوينيّ الخطيب(ت٧٣٩ه)، ضبطه وشرحه: عبد الرّحمن البرقوقيّ، ط١، دار الفكر العربيّ، ١٩٠٤م.

٨- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزّيّات، مطبعة الرّسالة، ١٩٤٥م.

٩- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجانيّ النّحويّ(ت٤٧٤هـ). قرأه وعلّق عليه محمود محمّد شاكر، نشر مكتبة الخانجيّ بالقاهرة، مطبعة المدنيّ بالقاهرة، (د.ت).

١٠- ديوان المعاني، أبو هلال العسكريّ(ت ٣٩٥ هـ)، شرحه وضبط نصّه: أحمد حسن بِسج، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٤١٤ه=١٩٩٤م.

١١- الرّسالة العذراء، إبراهيم بن المدبّر(ت٢٧٩ ه)، تصحيح وشرح: د. زكيّ مبارك، ط٢، مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة، ١٣٥٠ه=١٩٣١م.

١٢- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، أبو حاتم محمّد بن حِبان التّميميّ البستيّ(ت٣٥٤هـ)، (د.ت).

١٣- سرّ الفصاحة، أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ الحلبيّ(ت ٤٦٦ه)، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٢م.

١٤- سِيَر أعلام النّبلاء، شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ(ت٧٤٨هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، ط ٢، دار الرّسالة، ١٩٨٢م.

١٥- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، أبو الحسن بن رشيق القيروانيّ الأزديّ(ت٤٥٧هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، ط٥، دار

الجيل، ١٤٠٧هـ = ١٩٨١م.
١٦- كتاب الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥ه)، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، ١٣٨٤هـ=١٩٦٥م.
١٧- كتاب الصّناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكريّ(ت٣٩٥هـ)، تحقيق: محمّد عليّ البجّاويّ ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت،١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.
١٨- المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ضياء الدّين بن الأثير(ت٦٣٧ه)، تقديم وتعليق: د. أحمد الحوفيّ، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر القاهرة، (د.ت).
١٩- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، محمّد بن مكرّم المعروف بابن منظور(ت٧١١هـ)، تحقيق: إبراهيم صالح، ط ١، دار الفكر، سورية، دمشق، ١٤٠٨هـ =١٩٨٧م.
٢٠- مفتاح العلّوم، أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن عليّ السّكّاكيّ(ت٦٢٦ه)، تحقيق: عبد الحميد الهنداويّ، ط ٢، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ٢٠١١م.
٢١- المعجم الفلسفيّ، د. جميل صليبا، الشّركة العالميّة للكتاب، بيروت،١٤١٤ه=١٩٩٤.
٢٢- معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريّا(ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل- بيروت ١٤٢٠ه =١٩٩٩م.
٢٣- الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ أبو القاسم الحسن بن بشر الآمديّ(ت٣٧٠ه)، تحقيق: السّيّد أحمد صقر، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٣٩٢هـ =١٩٧٢م.
٢٤- نظريّة البلاغة متابعة لجماليّات الأَسْلَبة العربيّة د.عبد الملك مرتاض، ط١، هيأة أبو ظبي للثّقافة والتّراث - أكاديميّة الشّعر، الإمارات العربيّة المتّحدة، ١٤٣٢ه =٢٠١١م.
٢٥- نقد النّثر المنسوب لقدامة بن جعفر(ت٣٣٧ه)، تحقيق: د. طه حسين وعبد الحميد العباديّ، مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة، ١٣٥١هـ=١٩٣٣م.
٢٦- النّكت في إعجاز القرآن(في ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، أبو الحسن بن عليّ بن عبد الله الرّمّانيّ(ت٣٨٤هـ)، تحقيق: محمّد خلف الله، و د. محمّد زغلول سلّام، ط٣، دار المعارف١٩٧٦م.
٢٧- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب النّويريّ(ت٧٣٣هـ)، تحقيق: عليّ بو ملحم، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٤٢٤ ه = ٢٠٠٤ م.
٢٨- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز فخر الدّين محمّد بن عمر بن الحسين الرّازيّ(ت٦٠٦هـ)، تحقيق: د. نصر الله حاجي مفتي أوغليّ، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.
٢٩- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجنّيّ(ت٦٤٨هـ)، تحقيق: محمّد الحبيب بن الخوجة، ط ٣، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.